2013 11 06

قالت هيلاري: لنتحدث عن الدين اليوم.

قلت في نفسي: من المجاري إلى قمة الجبل بخطوة سهلة واحدة. بالفعل كنت أفضل سماع المزيد عن تجاربها المخدراتية.

قالت هيلاري: عائلتي كلها شديدة التدين؛ يتحاورون مع الرب، يدرسون معه، يناقشونه، كما أفعل أنا؛ أقله جُل الوقت. لحسن الطالع لم يكتشفوا أي شيء قط عن تجاربي مع المخدرات؛ كان من شأن ذلك أن يقتل أمي شديدة الاعتزاز بأخلاقي؛ ظلت طوال حياتها تعلم في مدارس يوم الأحد، وأنا كنت أحضر دروس الإنجيل بانتظام ومنتمية إلى فريق المذبح. حين كنت في نحو السادسة عشرة من العمر زار البلدة رجل بالغ الأهمية: الكاهن الميثودي المسؤول عن الشباب المحترم دون جونز الذي بقي فارس أحلامي إلى أن ظهر بل كلنتون. لم يكن دون قد تجاوز السادسة والعشرين ولم يبدُ أكبر سنًّا مني بكثير. للتو كان قد سُرِّح من البحرية وتخرج في معهد درو الجامعي اللاهوتي.

لم يكن قد سبق لي قط أن التقيت أحدًا مثله من قبل. كان وسيمًا جدًّا، وبالغ النشاط، لدى وصوله في سيارته التشيفي المكشوفة الحمراء، سرعان ما

أصبح بالنسبة إليَّ أبًا، أمًّا، أخًا، معلِّمًا، ولي نعمة، وعاشقًا خياليًّا متحفظًا، كل ذلك في سلة واحدة؛ ما لبث أن صار الشخص الأهم في حياتي، مستشاري الذي أسهم كثيرًا في توسيع دائرة فهمي للدين، في تلقيني فنون الاشتباك مع التنوع، وفي تعليمي كيف أنقذ روحي بالأعمال الخيرية، الأمر الذي كان جيد التناغم مع فلسفة الحياة التي كنت قد شكلتها سلفًا. لم يكتفِ بتوجيهي إلى مواكبة الفنون، والآداب، وأسفار الكتاب المقدس، بل أوصاني بمضاعفة معرفتي بها جميعًا.

ذات يوم أحضر نسخة من لوحة الغرنيقا لبيكاسو، لوحة أثارت فيَّ خوفًا شديدًا وفتحت عينيَّ على أهوال الحرب المرعبة بعد حين. علمنا عن دوستويفسكي، تولستوي، سالنغر، وكان رجل نهضة مئة بالمئة، غير معارض لسماع أسطوانات بوب ديلان. كان ذلك صيف 1961م، ذات الوقت المثير حيث كانت مسيرات الحرية متواصلة في أعماق الجنوب. وحين جاء مارتن لوثر كنغ (الابن) إلى شيكاغو اصطحب دون فريقنا لسماع كلامه عن (النوم عبر الثورة)، الذي يحرك رسائل الرب المشحونة بالضمير.

حدثت نفسي: ما أشبه هذا بالبابا فرانسيس!

تابعت هيلاري تقول: مازلت أعود إلى تعاليمه كلما احتجت. أراسله منذ ما يزيد على عشرين سنة، وظل هو وزوجه يزوراننا – بل وأنا – تكرارًا في البيت الأبيض.

لمت نفسي بصمت على انقباضي لدى مبادرة هيلاري إلى إثارة موضوع الدين. سعيدة أنا الآن لأنها فعلت، وإلا لما عرفت مدى أهمية الدين بالنسبة إلى شخصيتها. منذ طفولتها، مثابرة هي على الصلاة كل ليلة قبل النوم، وبقيت الصلاة منبعًا لا يقدر بثمن للعزاء والهداية بالنسبة إليها. أسهم الدين في جعلها مواطنة محترمة، مراعية للقوانين، في شد أزرها أيام الإدمان، وفي دعمها عمومًا. يفسر ذلك القوة التي تهاجم بها القوى التي تعارضها،

obeikandi.com

انضباطها الذاتي الخارق، ونجاحها في تجاوز محن بالغة القسوة قادرة على إغراق أي شخص أضعف.

أمضتْ الصيف الفاصل بين سنتيها الأولى والثانية في الجامعة عاملة باحثة لدى أستاذ بجامعة ويزلي يدعى أنتوني داماتو، كان عاكفًا على تحرير كتاب عن الحرب الفيتنامية بعنوان الوقائع الفيتنامية: تقييم جمعية ريبون. وجمعية ريبون هذه كانت حركة جمهورية ليبرالية اعترفت بأنها مؤمنة بأن «من شأن مستقبل البلد أن يكون متوقفًا لا على التطرف بل على الاعتدال». من السهل رؤية مدى مناشدة فلسفتها حتى لهيلاري الشابة.

أسهم الأستاذ الجامعي السابق أكثر في تثقيف هيلاري من خلال تزويدها بكتب للاطلاع من تأليف مارشال مالكوهان، والموسوعي اليسوعي والتر جي أونغ، وكلاهما كاثوليكيان ليبراليان أثارا إعجاب هيلاري لكون فلسفتهما متناغمة مع توجهها الويزلي. كتب أونغ عن إيجاد (قرية كوكبية)، كان من شأنها أن توفر إمكانية إطلاق وسيلة إلكترونية كان سيستخدمها بل كلنتون لاحقًا في خدمة أغراض سياسية بالغة العمق. كانت هيلاري مؤمنة بأن كتاب أونغ كان أحد أهم الكتب التي سبق لها أن قرأتها. تساءلت بصمت ما إذا كان عنوان كتابها، يغدو قرية (It Takes a Village) مستلهمًا من كتابات أونغ.

حين سألت هيلاري عن علاقاتها المبكرة بالرجال، حدثتني عن ارتباطاتها بالجنس المقابل إبان سنوات دراستها الثانوية. قالت إنها وأصدقاءها من الجنسين كليهما كانوا يتسكعون معًا بعد المدرسة في شارع الوجبات السريعة، ويذهبون معًا أواخر الأسبوع إلى السينما. كل ذلك كان بريئًا. (الثنائيات) كانت ثابتة، وكانت الأكثرية صاحبة خبرة.

اعترفتْ بخجل واضح: لم أذهب بعيدًا على هذا الصعيد. ربما لأن كثيرين لم يرغبوا في الذهاب معي.

تابعت هيلاري تقول: حين وصلت إلى ويزلي، كانت أكثرية الفعاليات مع الرجال؛ مع أفراد من كليات آيفي ليغ، وتألفت في المقام الأول من مشاوير في شارع بوسطن العام، رحلات قطارية إلى مانهاتن ونيوهيفن، مباريات كرة قدم، حضور حفلات موسيقية، وزيارة متاحف. أكثر الأحيان كنا نعتمد على مناسبات الاختلاط أواخر الأسابيع مع شباب من مدارس آيفي ليغ بنيوانغلند، التي كانت تتمخض أحيانًا عن مواعدات أكثر جدية. وفي ليالي آخر الأسبوع كنا نعود جريًّا إلى مهاجعنا التزامًا بمنع التجول بعد الساعة الواحدة. كان مسموحًا للشباب في مهاجع ويزلي بالتحرك فقط أيام الأحد بين الثانية والخامسة والنصف بعد الظهر. ونظام (قاعدة القدمين) كان نافذًا في غرف المهجع؛ اثنتان من الأقدام الأربع كان يجب أن تكونا على الأرض كل الوقت. كنت أحب الرجال دائمًا قالت هيلاري، وهي تحدق في بؤبؤ عيني. تساءلت عما كانت تريد إبلاغي به ولا تقوله.

تابعت الكلام قائلة: كان صديقي المهم الأول جيوف شيلدز التقيته في موعد ثنائي بحفلة في هارفارد حين كنت في السنة الأولى. في أثناء الرقص همس في أذني: أنت فتاة جميلة، راقصة عظيمة، والكلام معك ممتع. جمَّدني الكلام. لم يكن قد سبق لي أن شعرت بأن الرجال يرونني حسنة المظهر أو حتى لافتة. كدت لا أصدق أن رجلًا أكبر سنًّا جذابًا، فارسًا ونجم كرة قدم بالولاية، قد انجذب إلي. كتبت رسائل إليه في هارفارد تحرجني الآن عندما أتذكرها. كانت رسائل عاطفية، مولعة بالنجم وورومانسية.

أما شخصيًّا فكنا أكثر الوقت نتحدث في السياسة وفي كيفية حل مشكلات العالم، مواعيدنا كانت عادة تبدأ مع إحدى الحفلات في ونثروب هاوس، حيث كنا نقيم، كنا نرقص خدًّا على خد، على أنغام إلفيس برسلي والخنافس، غير أنني كنت دائمة التفضيل للجلوس ومناقشة السياسة بدلًا من الرقص في حفلة أو الذهاب إلى لعبة كرة قدم. كانت كرة القدم تشعرني بالسأم. ذلك هو ما كان

يجعلني أصطحب كتابًا كلما ذهبت إلى لعبة، الأمر الذي بدا مخيفًا بالنسبة إلى بعض الفرسان.

كان وقت يقظة فكرية بالنسبة إلي؛ كثيرًا ما كنا نستغرق في حوارات حامية حول الحرب الفيتنامية، الحقوق المدنية، أو القضايا العنصرية. كنت معجبة بوجود شريكة زنجية في الغرف؛ لم يكن ذلك مألوفًا في تلك الأيام. كنا نناقش الأدب، والسياسة، والموسيقى، والفلسفة؛ لاسيما الفلسفة، أتذكر بشغف إحدى المناقشات المحمومة حول احتمال وجود شيء مثل أخلاق مطلقة، أم هناك أخلاق نسبية وحسب. كنت محظوظة بصديق قادر على مواكبتي فكريًّا؛ جل الشباب في سني لم يكونوا أقل مني اهتمامًا.

أبواي كانا متشددين جدًّا معي (قالت بحزن) ويرفضان السماح لي حتى بالبقاء مع صديقة ليلًا، فضلًا عن الذهاب إلى نيويورك؛ كانا يقولان خطر جدًّا! لا نستطيع تركك تتسكعين هناك! ماذا لو عرفا عن عادة التعاطي؟! غير أنني استطعت وأنا في سنتي الجامعية الثانية أن أتسلل من تحت أجنحة أبوي، وانطلقت إلى حفلة نهاية أسبوع بدارتموث، وهناك التقيت شابًا أعجبني، وأمضيت معه الليل في هانوفر. كنت شديدة الاعتزاز بنفسي (قالت مع ابتسامة) صباح الإثنين لم أستطع سحب نفسي من السرير، حتى للذهاب إلى درس الإنجيل. كنت قد بدأت أتغير بالرغم من وجداني الميثودي الصارم.

كشَّرتُ وفكرتُ: أحسنتِ يا هيلاري!

منذ سنتها الثانية، كانت هيلاري إحدى زعيمات ويزلي، بعد اختيار ست زميلات صف للعيش معها في أحد المهاجع. كُنَّ يتناولن وجباتهن جميعها معًا في كازينو حجري، وطوَّرنَ ما كان سيُعرف لاحقًا باسم (الشقيقات). على الدوام ظلت هيلاري راغبة في معرفة المزيد عن الأمريكيين ذوي الأصل الإفريقي (الأفارقة الأمريكيين)، وكانت تصطحب طالبة زنجية إلى الكنيسة. في تلك الأيام كان ذلك تصرفًا جريئًا. الصديقات كن ينتقدنها بعنف على ما عددنه

obeikandi.com

عدم نضج سياسي بعيدًا عن أي تطلع إلى الاندماج. بقيت هيلاري مترددة قليلًا.

قالت: كنت أختبر بنفسي وغيري من رواد الكنيسة. في صفي المؤلف من أكثر من أربع مئة طالبة وطالب، ستة فقط كانوا زنوجًا، ولم يكن بين أعضاء الهيئة التعليمية أي زنوج بالمطلق. مع مرور الوقت كنت سأصبح حليفة سياسية للطلاب الزنوج، غير أني في ذلك الوقت لم أكن سوى صديقة، للأسف لم أكن طرفًا في أحداث الحقوق المدنية الانعطافية التي شهدها جيلي.

تابعت الكلام قائلة: مع أنني كنت داعمة للحقوق المدنية في أعماقي، فإنني لم أبادر إلى الالتحاق بركب الصغار المعتصمين من:

Student Nonviolent Coordinating Committee (SNCC) الذين ذهبوا إلى سلما الآلابامية؛ لأنني شعرت بأن ما كانوا يفعلونه كان غلوًّا في التطرف، اجتهدت كثيرًا للوقوف على كل ما استطعت الوصول إليه عن الزنوج وعن مشكلات الفقر ذهنيًّا أكثر منه على نحو تجريبي؛ لأن تلك هي طريقتي. وبسبب اهتمامي الفعلي بالعلاقات العنصرية كنت إحدى أوائل طلاب ويزلي الملتحقين بدورة سوسيولوجيا مدينية وجدتها بالغة الإقناع. تبقى العلاقات العنصرية إحدى هواجسي الحياتية الكبرى.

علمني داماتو أن الوقائع هي الأدوات الوحيدة لاكتشاف الحقيقة، ولابد من غض الطرف عن الأحكام الموضوعية، إنها الطريقة العلمية الذكورية الكلاسيكية لرؤية العالم، وهي تعني الكثير بنظري.

كتاباته وتعليماته أسهمت في زيادة غربتها عن حدسها ورؤاها. لم أفاجأ حين قرأت أن كثيرين من أصدقائها الطالبات والطلاب كانوا يرون هيلاري خالية كليًّا من الاستبطان، ويعتقدون أنها كانت على الدوام تلوذ بالخارج حين تفسد الأمور؛ بحثًا عن الأسباب. وطوال بقائها قادرة على دفن مشكلاتها

الخاصة عن طريق التماس الحلول لمشكلات العالم، لم تكن ملزمة بالغوص في أعماقها الذاتية. كذلك كانت قادرة على العزوف وفراغ الصبر حين كان الناس يعارضونها. لم تكن تكشف إلا عن القليل من حياتها الداخلية أمام من هم حولها. وكيف تفعل، وهي نفسها مفصولة عن ذاتها؟

عندما قرأت التعليق في كتاب أو آخر، لم أكن أعرف أن هذا النزوع الهيلاروي كان سيصبح لعنة وجودي. كيف تتولى تعليم شخص مدمن على الهرب من الألم الناجم عن النظر إلى داخله؟ الرب وحده يعرف، أما أنا فلا أعرف بكل تأكيد.

كانت ثمة مشكلة كبرى واحدة ناتجة من طريقة هيلاري في النظر إلى العالم؛ لم تكن دائمة التأكد ممن تكون. قالت بطرافة: ليتني ألتقيها مرة! واثقة أنا من أنني سأعجب بها.

أعرف أنك ستفعلين. قلت لها.

هذه الميزة لم تبدُ دافعة زملاء هيلاري في الصف الدراسي إلى تقليص إعجابهم بها. اشتُهرت بالدفء، بالطرافة، وبالاجتهاد، وبكونها تلك التي تعرف كيف تنجز. كانت سمحاء وكريمة، وكان الناس يحبون صحبتها. ذات صفات قيادية فطرية منذ الولادة، درجت على إطراء الآخرين دونما أثر للأنانية متذكرة تفاصيل حيواتهم المهمة بنظرهم.

obeikandl.com